نحو دائرة معارف إسلامية عربية

اقتراح بتأليف دائرة معارف إسلامية عربية باللغة العربية (*)

د. عبد العزيز إبراهيم السويل

أولاً ـ المقدمة:

لا شكَّ بأنَّ الحاجة ملحة إلى نشر موسوعة إسلامية عربية تضاهي الموسوعات العالمية، ولو لم يكن من قصور في الثقافة العربية المعاصرة غير هذا لكفى دلالةً على تقصيرنا في هذا الجانب، والأمر أسهل بكثير مما يصور المبالغون أو يتصورون. ومن يأخذ بما وصلت إليه الموسوعات العالمية اليوم إمَّا يجهل تاريخ تطوّرها وأصلها ونشأتها أو متكاسل ميال إلى التسويف وتعليق الأعباء على كواهل الآخرين.

ويمكن الوصول إلى موسوعة إسلامية عربية بإحدى طريقتين. الأولى بتبني إحدى الموسوعات العالمية القائمة والتعاقد مع القائمين عليها لتعريبها ـ (أي: نقلها برمتها مع الاقتصار عليها إلى العربية) ـ. والثانية تكون بالتفكير الجاد بتأليف موسوعة عربية ابتداء ـ أي بتحديد ملامح الموسوعة وكتابتها باللغة العربية أصلاً ـ.

وأود باديءَ ذي بدء أن أتطرق إلى الإمكانية، وأقول: إن التأليف أسهل بكثير من الترجمة خاصة إذا استحضر المرء أن المساحة الكبرى مما تحتويه موسوعة عالمية ولنقل ستون بالمائة منها لا يصلح لنا، بل مرفوض حضاريا وثقافيا ودينيا من قبلنا، وكذلك أن المساحة الكبرى مما ينبغي أن تحتويه موسوعة عربية إسلامية ولنقل - أيضا - ستون بالمائة منها لن نجده في موسوعة عالمية (غربية). إذا استحضر المرء ذلك وجد أن أقلّ من النصف فقط - وهو الأرضية المشتركة - لا يشكل ما يستدعي تبني دائرة معارف غربية قائمة ويمكن تداركه بالرجوع إلى المراجع العالمية بما فيها دوائر المعارف العالمية نفسها، وهذه المساحة المشتركة هي في الواقع معارف عالمية لا تقتصر على حضارة دون أخرى، وليس لأحد حقّ الحجر عليها أو تحديد تصوّر لها، بل إن كل حضارة قد تراها من منظور خاص يتسق مع مبادئها وفلسفتها.

وسأفترض هنا أن الخيار الوحيد الممكن للوصول إلى دائرة معارف إسلامية عربية هو خيار التأليف، وعلى ذلك فسأتطرق فيما بعد إلى المحاذير التي تحف بخيار الترجمة، والمقصود بالعبارة الأخيرة - أي: خيار الترجمة - هو تبني موسوعة غربية قائمة، وترجمتها بذاتها وبجملتها، وليس المقصود الترجمة عن عدد من الموسوعات أو الأخذ منها، وهذا أسلوب علمي متبع باعتبار تلك الموسوعات مراجع يجوز لكل مؤلف أن يرجع إليها أو يقتبس منها أو يستفيد من محتوياتها.

ومشروع مثل هذا لا بد أن يكون عربيا إسلاميا أصلا وابتداء، وهذا لا يخرج في إطاره العام عن افتراض أن الأمة الثرية كأمتنا تستطيع شراء أحدث الأجهزة، وأحسن المنتجات في العالم، ولكنها لن تستطيع شراء ما له علاقة بدينها وحضارتها وثقافتها وتلك أخص خصوصياتها. والواقع أن أمة في حال كحالنا

ينبغي أن تهتم بالعلوم الإنسانية قبل اهتمامها بالعلوم التطبيقية؛ فالأخيرة بضاعة الغرب وهو بها أولى ونحن نستطيع استيراد نتاجها، أما الأولى فليست لهم، ولا يعرفون لها، وقد لا يهتم معظمهم بها، ولا بد لنا نحن من العمل عليها. فقد نستطيع مثلا شراء حاسب آلي أو سيارة أو جهاز إنذار أو غيرها، ولكننا لن نستطيع أن نجد يابانيا أو أمريكيا أو ألمانيا يصمم لنا اختبارا نقيس به قدرات الطفل العربي، أو يحدد لنا شخصية المرأة العربية، أو يفصل لنا في المواريث أو يدرس تاريخنا. نحن قد نفيد من النتاجات العالمية، ولكننا لن نطمع أن نكل إليهم خصوصيات أمتنا، ونتكل عليهم في شيء يخصنا، ونقوم بترجمة ما ألَّفوه ليتناسب مع حضارتهم، ويحتوي ثقافتهم. ولئن كانت الترجمة وسيلة مهمة جدا من وسائل التواصل بين الحضارات، وأسلوبًا من أساليب التأثر بين الثقافات إلا أنها لا ينبغي أن تكون مصدرا وحيدا لذلك فتكون بمثابة القيد تحجب إبداع الأمة نفسها، وتحرم أبناءها من الاطلاع عليه، وتفرض عليه إبداعات الأمم الأخرى، وتعلمهم من خلال النظرات الغريبة عليهم بما هو مصوغ بأساليب غيرهم، ومن منطلقات غيرهم. فالتأليف والترجمة معا يمكن أن يكونا مصدرين مهمين لتحقيق هدف وطني سام كتأليف موسوعة (دائرة معارف). وهذا ما لا يمكن فعله إن اعتمد أسلوب الترجمة. ـ أي: ترجمة عمل قائم من لغة ما إلى العربية ـ لأنه سيحرمنا من إضافة ما نريد.

ولعل كل مطلع على مصادر الفكر الإسلامي يعلم بالطبيعة الموسوعية لهذا الفكر مما يشجع على اعتبار التراث الإسلامي والعربي وهو موسوعي بطبعه، وهذه حجة أخرى على اعتماد أسلوب التأليف وليس الترجمة.

ثانيا ـ ملاحظات مبدئية:

لا بد قبل الدخول في التفاصيل من الاجتهاد في تحديد هُوِيَّة هذه الموسوعة الجديدة بشكل دقيق يسهم في تحديد شخصيتها، ويوضح ملامحها، ويدخل في ذلك تحديد النقاط التالية، وهذا كله خاضع لرأي أهل الشأن من العلماء والمختصين، ولكن لا بأس من الإشارة إلى شيء من ذلك للتدليل:

١ ـ الحجم: ويقصد به عدد المداخل التي تحتوي عليها الموسوعة، وطول أو قصر ما يخص به كل مدخل من معلومات.

٢ ـ النمط: والمقصود به تبني أحد الأنماط السائدة في السوق، وينبغي تحديد ذلك بناء على الحاجة، وبعد الاطلاع على المتوفر.

٣ ـ المستوى: ويقصد بذلك مستوى المعلومات والعمق والأسلوب والعرض وغير ذلك.

٤ ـ الجمهور المخاطب: والمقصود بذلك أن يحدد نوعية ومستوى الجمهور المستهدف وتعليمه وثقافته ومستواه الاجتماعي والاقتصادي إلى غير ذلك من متغيرات تؤثر في المتلقي، وتحدد الشريحة المستهدفة منه.

٥ ـ الطباعة: حجمها، أشكالها، العناوين والهوامش... إلخ.

٦ ـ مجلس للإدارة يكون قادرا ومؤهلاً ومؤمنا بهذا العمل وأهميته.

٧ ـ المجلس العلمي: ويشكّل من عدد من العلماء المتخصصين في مختلف المجالات، وربما بعض الخبراء في المراجع والموسوعات والقواميس ممن لهم خبرات في المجال وتجارب سابقة، وكذلك

بعض أعضاء مجلس الإدارة .

٨ ـ هيئـــة التحـــرير : وتشكل من قبل المجلس العلمي وتختار من ضمن أعضائه أو من غيرهم .

٩ ـ الهيئـــة التنفيذيـة : وتتكون من مدير عام ومساعـدين وعدد من المساحين والمدخلين والموظفين للخدمات المساندة .

١٠ ـ المكاتب حول العالم ، ولا بد من إيجاد مكاتب مراسلة في كل من الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأقصى والعـالم العربي بالإضافة للمكتب الرئيس في المملكة العربية السعودية .

ثالثا ـ محاذير تحف بخيار الترجمة:

لقـد تطرقنـا في المقـدمة إلى أن الموسوعـة تعد مـن أخص خصوصيـات كل حضارة ، وبالتـالي فالترجمة لن تخدم الهدف المطلوب ، وذلك لعدد مـن المحاذير نجمل بعضها كما يلي :

١ ـ محاذير حضارية :

أ ـ أهم المحاذير الحضاريـة التي ينبغي الانتباه لها هي تكريس التبعية للغرب مما قـد يكون سببـا في رفض الموسوعـة ، وربما احتقارها من قبـل بعض الأوساط العلميـة ، وهكذا تكـون مـرجعا آخـرَ مترجما عن الغـرب مع إمكانيـة التأليف ابتداء .

ب ـ تلافي ما قد يضعه القائمـون على الموسوعات العالمية من عقبات ناجمـة ـ في الغالـب ـ عن تعـاليهم ، وعدم احترامهم لـلأمم الشرقية ، وخـاصة العـربية الإسلامية التي يرونها متخلفة وعالة عليهم ، ولا يستطيعون تصورها خارج إطار

المستهلك الهامشي الذي يعيش على فتات نتاجهم، ويمكن حسب ظنهم تصور استهلاك هذه الأمة للسيارة والحاسوب وغيرها، ولكنهم عندما يأتي الأمر إلى الثقافة والمعارف يصعب عليهم تخيل جدارة هذه الأمة بذلك. ولعل من يضطر إلى التفاوض معهم لترجمة شيء من نتاجاتهم الفكرية يلاحظ تمنّع القائمين على مثل هذه النتاجات وتصددهم ومحاولاتهم لفرض وجهات نظرهم، بل وربما إملاء ما ينبغي أن تكون الترجمة العربية عليه.

ج ـ قد يكون في تأليف موسوعة عربية تفادٍ للتجاوزات الغربية في التعامل مع الأمم وكيل الإهانات لحضاراتها والاستهانة بتراثها والتعالي عليها بتعميم المعايير الغربية والأنماط النصرانية على حياة أفرادها، وهكذا قد تكون هذه فرصة لنُرِيَ القوم أنه يمكن تأليف دوائر المعارف بمعايير إنسانية تحترم الجميع، وتقدر نتاجات كل الأمم، ولا تستهين بحضارة تتفق أو تختلف معها. فلا داعي لمشاطرة القوم فحشهم، ولقد آن الأوان لنقدم نموذجا حضاريا للموسوعة المتجردة.

٢ ـ محاذير لغوية:

١ ـ ومن أهم المحاذير اللغوية مشكلة الترجمة، ومن أبجديات ذلك هي نظرية الترجمة نفسها كأداة لنقل المعارف ولعل من لم يكابد هذه المشكلة لا يرى صعوبة بل واستحالة الترجمة أحيانا، ويمكن استشفاف ذلك من الخلاف العميق بين المنظرين للترجمة إذ تتراوح الأطر النظرية للترجمة ممن يرون ضرورة الالتزام الحرفي بالنص الأصلي ولو وصل الأمر للإخلال حفاظا على الدقة والقرب للأصل بقدر الإمكان أو التجاوز الذي يسوغ للمترجم فهم المعنى

العام وإعادة صياغته باللغـة المتلقية، وما بين هذه وتلك من تقسيمات نظرية لم يتفق بعـد على أي منها. ولا شك أن لكل إطـار نظري محاسن ومسـاوئ ليس المقام هنا مقام الدفاع عن أي منها أو انتقاده.

٢ ــ من مشاكل الترجمة مشكل إيجاد المترجم ــ بكسر الجيم ــ المتمـرس ليس فقط بمفـردات اللغتين وتـراكيبها بل بـالأبعـاد الحضاريـة والمعـاني الاجتماعيـة والثقـافية التي تضلل المفـردات وتلبس التراكيب لبوسهـا، وليس كل من اطلع على لغة أمّة استشرب حضارتها بل ليـس كل من أجاد لغـة أمة فهم ثقـافتها، وحتى لو افترض وجـود المترجم للغتين والمتشرب للحضارة يبقى الشـك قائما في قـدرته على المراوحـة بينهما، والتفكير في كلتيهما خـاصة عنـدمـا يطول المقـام، وتتعقد الرؤى، وتتـداخل المعارف. وتكون النتيجة في الغالب مسخـا حضاريا لا ينتمي إلى هذه الأمة أو تلك، فيفقد المؤلف عظمته وروعته في لغتة الأصلية، ولا يكتسب روعة أو عظمة في اللغة المنقول إليهـا، ولو كان الأمر مجرد «تعريب» ألفاظ وتعابير لقـامت الآلة مقام الإنسان، منذ لعب الحاسـوب دوره في خدمة الإنسان ولكن للأمر محاذيره ومحدداته.

٣ ــ ومن مشـاكل الترجمة مشكل تنسيق المترجم ــ بفتح الجيم ــ، وتحديـد أسلـوب العمل للمترجمين، وهم بلا شك يـزيـدون على المائة ــ فيخـرج العمل قطعا مصفـوفة لكل واحـدة منها نفس يختلف عن الأخـرى يعكس اجتهادات وأسلوب وشخصية مترجمه بل وقدرته ودقتـه وقناعاته إلى غير ذلك من المتغيرات التي تنعكس على النص المترجم.

وإن صرف المرء جهـدا في تصميم مـوازين معيـاريـة لكل المترجمين استغـرق ذلك من الـوقت والجهد والمال مـا قد يفـوق الترجمة ذاتها، وقد ينتج عنـه خليط

عجيب يخلط متغيرات لا يمكن تحديدها مهما بذل.

٤ ـ ومن مشاكل الترجمة مما يتعلق بالمترجِم - بكسر الجيم ـ هو بعده عن الموضوع الذي يترجم فيه فلن نجد مترجين متمرسين ينطوون على كل القدرات التي نتوق إليها، ويتفادون كل النواقص التي أشرنا إليها، وهم في الوقت نفسه متخصصون في كل التخصصات التي ستحويها الموسوعة، ولو وجدنا عددا منهم متخصصا في بعض مجالاتها فلن نحيط بكل ما تحويه، وغير المتخصص لن يترجم ما نريد كالمتخصص.

٥ ـ ومن مشاكل الترجمة معضلة المصطلح، وهي قضية تتسبب في كل أو معظم ما نراه من مظاهر الانشطار المعرفي في العالم العربي؛ إذ لم يتفق العلماء المتخصصون في مجال ما من العرب على تعريب للمصطلحات المستخدمة في مجالهم، بل نجد أن بعضهم يتبنى مصطلحا إنجليزيا، وآخرين يتبنون مصطلحا فرنسيا بل وربما شرقيا يخالف الاثنين، ونجد اختلافا في ترجمة المصطلحات، ففي العرب من ينافح عن تعريب المصطلحات، ويصر على ذلك، ومنهم من يستدخل المصطلح الأجنبي بلفظه ومعناه، وهكذا يتبين أن هذه مشكلة لا بد من إيجاد حل لها قبل الشروع في الترجمة.

٣ ـ المحاذير الثقافية:

١ ـ أهم المحاذير الثقافية مشكل المداخل، ويكون ذلك على أربعة أضرب:

أ ـ الاعتراض على مداخل برمتها نجدها في الموسوعات الغربية، ولا نقبل دخولها في الموسوعة العربية.

ب ـ غياب مداخل في الموسوعات العالمية نرى ضرورة وجودها في العربية.

ج ـ المساحة والجهد الذي يبذل على المداخل الموجودة التي نتفق معهم عليها .

د ـ ما يقال في التعريف بهذه المداخل مما قد يكون محل اختلاف .

وإليك تفصيل كل واحدة منها :

أ ـ مداخل ابتدعها الغرب ، وأصبحت مقبولة عندهم على جميع أو بعض المستويات ، وهي في الشرق محل اعتراض بل هي قد تكون محل اعتراض عندهم ، وهذه في المفهوم الغربي قابلة للنقاش ، وقد تزول ـ وليست تجربة اليهود مع القواميس اللغوية ببعيدة ـ خذ مثلا إطلاق «المحمدية» كمدخل للحديث عن الإسلام ، و«الحريم» للحديث عن مكانة المرأة في المجتمع الشرقي وغيرها .

ب ـ غياب الكثير من المداخل التي نعتقد نحن ضرورتها ، وأن نقصها خلل في الموسوعة ـ أية موسوعة ـ ناهيك عن العربية الإسلامية وليس على المرء أكثر من البحث في أعرق الموسوعات العالمية وأثراها فلن يجد عن الشرق العربي والحضارة الإسلامية العربية غير مداخل محدودة جدا قد تبدأ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتمر مرورا سريعا بصحابي أو اثنين ، ثم تقفز قفزا إلى عمر الشريف وجيهان السادات وتلمس القاهرة ودمشق وكأنهما مدينتان صغيرتان تغفوان تحت سماء الشرق اللاهبة ، وتحتضنهما رماله الجافة الحارقة ، وفي كل ذلك ما فيه من مجافاة الحقيقة وتزوير الأمور والقفز على الحقائق وتقزيم الهام ورفع الوضيع مما ليس له أن يدخل في دوائر المعارف أصلا .

ج ـ قد نتفق على عدد من المداخل ـ ربما بلغ أربعين بالمائة من حجم الموسوعة ـ ولكن مع اتفاقنا على ذلك نختلف اختلافا تاما فيما ينفق من جهد

ومساحة على كل مدخل من هذه؛ إذ يعلم كل من أتيح له الاطلاع على دوائر المعارف العالمية أن شخصية كعمر بن الخطاب لا تحتل أكثر من خمسة أسطر، بينما يراق حبر غزير على مساحة ثلاث صفحات للحديث عن مارلين مونرو، ناهيك عن الحديث عن تشرشل أو مارتن لوثر أو كولومبس أو غيرهم ممن يرونهم من رموز حضارتهم.

د ــ ونختلف اختلافا تاما فيما نقوله تحت تلك المداخل التي نتفق معهم عليها، فنحن لا نرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ــ مصلح وقائد عظيم استطاع أن يوحد العرب خلفه على مبدأ جديد أطلق عليه الإسلام، ولا نرى مثلهم أن القرآن كتاب بلاغي كتب بأسلوب رائع ـ وربما بتأثير حضاري يوناني أو روماني أو غيره ــ، وأنه لذلك استطاع أن يلفت انتباه العرب وهم أمة أمية جاهلة، ولكنها تقدر الكلمة وتطرب للشعر، ونحن كذلك بالمقابل لا نكيل المدح لتيودور هرتزل على أنه أحد رواد التحرير في العالم، وأنه استطاع بذكائه وعبقريته تأسيس حركة عظيمة تمخضت عن تأسيس دولة حديثة ديمقراطية . . إلخ.

٢ ــ ومن المحاذير الثقافية ما يمكن أن نختاره من صور ورسوم وأشكال وتوضيحات لا بد أن تكون جزءًا لا يتجزأ من أية موسوعة، فما مدى العري الذي نستطيع أن نتحمله؟ وما مدى التحرر فيما يتعلق بالتوضيحات المرسومة الذي نستطيع استيعابه؟ وما هو الحد الأدنى والأعلى لما نستطيع نشره فيما يتعلق بحضارتنا وديننا ومجتمعنا؟ فما يباح عندهم قد يكون محرما عندنا، وما هو مقبول عندهم قد يكون مرفوضا عندنا، وعلى هذا فقس.

٣ ـ ومن المحاذير الثقافية ما يمكن أن نتطرق إليه من آراء تتفق أو تختلف مع

ثقافتنا، وتعكس أو تخالف عاداتنا وتقاليدنا، فعندهم كل شيء قابل للدرس والمناقشة ـ وربما كان هذا حسنة أو منقصة ـ أما نحن فلنا حدود، تستلزم الواقعية أن نفكر بها، وأن نعطيها ما تستحق من وزن، وإلا انتهينا بمطبوعة ممنوعة في كل بلادنا، ولا يمكن أن يستفيد منها أحد إلا تهريبا من الرقيب وولاة أمور أولادنا في منازلنا، بل وربما أصبحت هدفا للمطاردة والمصادرة والملاحقة، وبذلك يتبخر الهدف المقصود أصلا. لا بد والحال هكذا من تحديد الممكن والمقبول والمستحيل والمرفوض وعلى أسس محلية ثقافيا وحضاريا بل وسياسيا واجتماعيا، ولا بأس من التوسع على أمل أن تكون هذه مدخلا لتوسيع مدارك الناس واستئناس أفكارهم ورفع مستوى تفكيرهم والارتقاء بذوقهم، فلا نريدها أن تكون تكراراً ممجوجاً لمقولات عفّى عليها الزمن أو ترديدا أبله لما قضى وانتهى، أو حتى تكريسا لأخطاء شائعة ينبغي لمطبوعة بهذا الحجم أن تصححها.

٤ ـ المحاذير المتعلقة بحقوق النشر والتوزيع:

١ ـ ولا شك أن هذه ستكون لازمة تعيش مع المشروع وتلاحقه، وإن تم التوقيع على اتفاقيات تنظم ذلك فستبقى قضية تتكرر كلما أضيف أو حذف أو جدد فيه، ومن يعلم فقد تتغير الشركة المالكة للمشروع الأصلي فنضطر إلى التعامل مع أناس آخرين بأفكار مغايرة وتوجيهات مخالفة، ثم تأتي قضية الكتاب السنوي الذي ينبغي أن يتبع مشروع الموسوعة، ويصدر عنها كل عام وهو مطبوع ينبغي أن يترك لنا حرية إصداره وتوجيهه الوجهة التي نرغب، والتركيز فيه كل سنة على موضوع أو فكرة نريدها نحن، وربما لا يتسنى ذلك

لأن المالك الأساسي لا يريد ذلك، فافرض أن العالم العربي والإسلامي حقق نصرا ما أو إخفاقاً ما في ذلك العام، بل إن أبسط الأمور هو التقسيم التاريخي للعام، فهل نتبع التاريخ الهجري كما هو الأمر في تراثنا أو نتبع التاريخ الميلادي كما هو سائد في الغرب؟ فلو أردنا أن نحتفل بدخول قرن أو مضي قرن، أو تحديد تاريخ معين والاحتفاء به، كل هذه الأمور لا يتسنى الاعتناء بها بشكل آلي إذا كان ارتباطنا دائما بناشر أجنبي يتبع تقويماً يختلف ويحتفي بتواريخ مغايرة بل ولا يقيم أي وزن لما سواها.

٢ ـ ثم لا شك أيضا أن مسألة التوزيع ستشكل عقبة أخرى فمن يقرر أين نوزع؟، وأين نبيع؟، وهل لأحد أن يجبرنا على التوزيع في أماكن قد لا نريد التوزيع بها أو التعامل معها؟ ومن يقرر السعر وأسلوب التوزيع؟ وهل لأحد أن يوزع في العالم العربي غيرنا؟ وهل يملك أحد حقوق النشر والتوزيع باللغة العربية غيرنا؟

٥ ـ المحاذير الأسلوبية (نفس الكتابة):

١ ـ تطبع كل لغة تفكير الأمة التي تتحدثها بطابع له مكونات عقلية وحضارية وفكرية تميزه عن الأمم الأخرى ـ وربما العكس: تؤثر الأمة بلغتها ـ، على أية حال ما نقصده هنا أن ما يكتب بلغة قوم يعكس فكرها في الأسلوب وليس فقط في المفردات والتعابير، وهكذا فهناك لغة يغلب عليها الأسلوب الشاعري البلاغي، ولغة يغلب عليها الأسلوب الشديد التجريد، وكل ما بين هذا وذاك. والشاهد أن ما كتب بنفس أسلوبي ينبع من ذات اللغة وما اعتاد متكلموها عليه يكون أوقع في نفوسهم وأكثر تأثيرا في عقولهم من ذلك المترجم

عن لغة أخرى ذات نفس أسلوبي مغاير، ويقل التأثير طبعا بحسب قرب اللغتين وبعدهما أو تقاربها وتنافرهما، ويتضح هذا أشد ما يتضح عند من لا يجيدون اللغة الأخرى أو حتى لم يتعرضوا لها بما يكفي لتذوق نفسها، وتدرب آذانهم على وقعها وموسيقاها. أما ما كتب باللغة نفسها واحتفظ بأغلب مزاياها وطبع من طبائعها وسبك بتراكيبها بلا تعسف ولا قسر فهو بلا شك سيكون ذا تأثير بالغ بل لن يباريه أية ترجمة مهما رقت.

٢ ــ ومن المحاذير الأسلوبية طول التراكيب وقصرها، وتقطيع الكلام وتقسيمه إلى جمل وعبارات ومفردات، وما ترجم لا بد أن يحتفظ بشيء من خصائص لغته الأصلية، ويترك آثاراً ـ إيحاء أو صراحة ـ لكل ذلك بل قد تكون من الظاهر الذي يتدخل في المعنى ويصيبه بشيء من العوج فيكون بذلك عائقا يفت في عضد المتلقي، ويثقل كاهل القارئ الذي كان ينبغي تحرير ذهنه لاستيعاب المعلومة وتمثلها بلا أدنى عناء أو جهد لغوي خارج عن المعنى أصلا.

٣ ــ ومن المحاذير الأسلوبية فن اختيار الكلمات المعبّرة أصلاً في اللغة، والبعد عن الموحش الثقيل مما قد يعوق فهم القارئ، ومهما أوتي المترجم من حسن الاطلاع على مفردات اللغتين يبقى عاجزا عن التعبير السليقي المتجرد، بل يعجز عن نقل مفردة من اللغة الأصلية إلى مفردة أخرى باللغة الهدف ــ المترجم إليها ــ بكل دقة وأمانة لسبب يسير، وهو استحالة تطابق المعاني عبر الحدود اللغوية ــ أي: بين لغتين ــ وذلك لاعتبارات حضارية واجتماعية وغيرها.

٦ ـ المحاذير التجارية والمشاركة في الأرباح:

١ ـ ومن ذلك تحديد أسلوب النشر ونوع الخط والورق والرسوم أو الصور التوضيحية وما شابه مما يدخل في تحديد السعر: وهذا أمر في غاية الخطورة والأهمية فقد يتم الإصرار على مواصفات معينة قد تكون سبباً في حرمان طبقات أو تجمعات سكانية معينة من اقتناء الموسوعة والإفادة منها، بل ربما كانت سببا في استحالة نشر العمل لأسباب تتعلق باختلاف المعايير ونوع الآلات والسائد من المقاييس والذوق للجمهور المستهلك وغيرها.

٢ ـ ومن ذلك أسلوب المشاركة في اقتسام الأرباح، ومدة العقود اللازمة، وهذه كلها بذور مشاكل قد تتطور وتصبح أعباء تفت في عضد المشروع إن لم يكن الآن فلاحقا، وربما تفاقمت فكانت سببا في قتله والقضاء عليه بعد أن يصبح حقيقة، ويتعلق بها الناس فتكون الكارثة أكبر ودفع المصيبة أشد.

٧ ـ محاذير عملية:

محاذير عملية تتعلق بالاستفادة من التجارب السابقة بدلا من الاقتصار على تجربة واحدة، فإذا تقرر ترجمة موسوعة ما، وعقد العزم عليها فلن يكون هناك متسع كبير من الحرية للاستفادة من غيرها، بل سنجد أنفسنا ملزمين بها أسلوباً ونمطا وتحديدا وفلسفة، وفي ذلك ما فيه من القيد الذي لم نلتزم به أصلا، فماذا عسانا فاعلين عندما نريد حذف شيء ما أو إضافة شيء ما أو زيادة ما قيل في مدخل أو اختصار الحديث عن مدخل آخر؟

رابعا ـ الجدول الزمني:

يتطلب العمل على مشروع حضاري مثل هذا مدة زمنية قد تطول، وليس من السهل التنبؤ بطول المدة أو قصرها بل ستتحدد على ضوء ما يحظى به المشروع من تشجيع ودفع يسهمان في تحقيقه، كما يعتمد ذلك بدرجة كبيرة على جدية وحماس القائمين عليه، وتوفيقهم في اصطفاء المهتمين العاشقين لمثل هذا العمل، وليس من المستغرب أن يستمر العمل على مثل هذا المشروع لمدد قد تتجاوز العشر أو الخمس عشرة سنة، ولكن المرء لا بد أن ينظر لمدة زمنية معينة تكون بمثابة النقطة الهدف، وعند بدء العمل والسير في مراحله يمكن إعادة النظر ومعاودة التقويم بشكل واقعي منبثق من التجربة، وهكذا فسنفترض مدة مبدئية لا تقل عن خمس سنوات مقسمة على البرنامج الزمني التالي: وذلك على افتراض تحقق الكوادر البشرية، والإمكانات المكانية والمادية اللازمة للعمل قبل البدء بالتنفيذ.

١ ـ المرحلة الأولى (مرحلة الإعداد): وتمتد من ستة شهور إلى سنة واحدة، ويقتصر العمل في هذه المرحلة على تصميم وإنجاز وتحميل قاعدتي معلومات.

أ ـ قاعدة معلومات المداخل: وتنقسم المداخل إلى فئتين رئيستين.

الأولى: المداخل العالمية: ويستفاد في ذلك من الموسوعات العالمية والمراجع المشابهة.

الثانية: المداخل العربية: ويستفاد في ذلك من الموسوعات العربية المتوفرة، وكتب التاريخ العربي والإسلامي وكتب التراث والأدب.

ب ـ قاعدة معلومات الشخصيات، وستحتوي على أسماء الشخصيات

العربية والإسلامية والعالمية التي ستسهم في كتابة الموسوعة، ومعلومات وافية عنهم تيسر الاتصال بهم، والتنسيق معهم، وتنقسم هذه القاعدة إلى فئات أربع:

الأولى: شخصيات من داخل المملكة والعالم العربي والإسلامي.

الثانية: شخصيات من أمريكا.

الثالثة: شخصيات من أوروبا.

الرابعة: شخصيات من بقية بقاع العالم.

وبانتهاء العمل على قاعدتي المعلومات هاتين قد ينتهي العمل في المرحلة الأولى.

٢ ـ المرحلة الثانية (مرحلة الكتابة والتحرير): وتمتد من سنتين إلى ثلاث سنوات، تبدأ هذه المرحلة بمجرد تجميع مداخل كافية للبدء بالكتابة، ومداخل كافية عن الشخصيات التي ستعمل على كتابة المتن، ويلاحظ أن هذه المرحلة تتداخل زمنيا مع المرحلة السابقة إذ لا ينبغي الانتظار حتى اكتمال المرحلة الأولى للشروع في هذه وذلك كسبا للوقت وحفاظا على تنفيذ الخطة الزمنية الموضوعة، وهذه، المرحلة قد تستمر بعد انتهاء المرحلة الأولى إذ سيستمر العمل حتى انتهاء الكتابة عن كل المداخل التي يتقرر دخولها في الموسوعة.

٣ ـ المرحلة الثالثة (مرحلة النشر): وقد تمتد إلى سنة واحدة على الأكثر من انتهاء المرحلة الثانية، وتبدأ هذه المرحلة بمجرد وصول المكتوب من العلماء، ولا يشترط انتهاء أي من المراحل السابقة للبدء بهذه أيضا محافظة على الوقت، وتنفيذا للخطة الموضوعة بأقصى دقة، وتتكون هذه المرحلة من الجزئيات التالية:

١ ـ استلام المكتوب .
٢ ـ فهرسة وتبويب المقالات ــ حسب النظام الذي سيتبع إما موضوعيا أو ألفبائيا ـ
٣ ـ انتقاء الصور والرسوم البيانية والتوضيحية التي ستصاحب النصوص .
٤ ـ إجراءات عمليات التحرير والتصحيح .
٥ ـ التحقق من النوعية ــ الجودة والنوعية ــ النهائية للنصوص ومصاحباتها .
٦ ـ النشر .

خامسًا ـ الميزانية:

يتكلف مشروع بهذا الحجم مبالغ طائلة قد لا يستطيع فرد أو مؤسسة بمفردها تحملها بل لا بد من تضافر جهود وطنية ، وخاصة لتحمل الأعباء المالية التي قد يتطلبها المشروع ، وليس من السهل أيضا التنبؤ بميزانية محددة فهذا يعتمد على الأسس التي أشرنا إليها عند الحديث عن الخطة الزمنية بل قد تتدخل عوامل اقتصادية واجتماعية أخرى لا دخل للمشروع أو القائمين أو العاملين عليه فيها ، وهذه على أية حال ستكون محل دراسة سنوية دائمة للتقويم وإعادة التقويم حسب المعطيات المتوفرة كل سنة ، ويمكن أن يقدر المبلغ الكلي للمشروع بكل مراحله بما لا يقل عن مائة مليون ريال سعودي، ولا يشترط توفر هذا المبلغ قبل البدء بالعمل بل يمكن الاكتفاء بالتزام عام أو خاص أو هما معا يتم استيفاء المبالغ لتوفير الميزانيات السنوية كل عام في حينه

ويمكن للمرء أن يتصور إمكانية تكوين «بحيرة» تمويل تتكون من:

أ ـ مساهمات المؤسسين.

ب ـ العمل على تخصيص وقف يدر ربحا معينا ـ ثابتا أو متغيرا ـ.

ج ـ الهبات والعطايا والتبرعات ـ المالية أو العينية ـ للمشروع.

هذه ملاحظات أولية ولا بد من التفصيل والدقة عند توفر الأرقام والمعلومات الحقيقية والمباشرة في الإطار العملي للمشروع.

سادسا الكوادر البشرية:

يتطلب العمل على مشروع حضاري كبير مثل هذا توظيف عدد مؤهَّل من الكوادر المتفهمة لقيمته، والقادرة على مثله، ويمكن تصور الوظائف التالية لتحقيق المراحل التي أشرنا إليها أعلاه.

١ ـ الماسحون: والحاجة قائمة لماسحين لتنفيذ المرحلة الأولى، ولا بد من توفر نوعين من المساحين.

أ ـ ماسحين يعملون على المداخل، ومهمتهم تنحصر بنقل المداخل من المصادر المذكورة أعلاه بعد تحديدها وتوفيرها، ويمكن أن يكون أولئك من أساتذة الجامعات والكليات والمدارس والقادرين من الهواة من عامة الناس، وأن يعمل هؤلاء الناس على أساس الوقت الخاص ـ أي: وقتهم ـ وفي منازلهم أو مكاتبهم وأثناء يومهم وليلهم، وستكون مهمة تحديد المداخل التي ستدخل فعلا في مادة الموسوعة عمل من يعينهم المجلس العلمي ويوافق عليهم مجلس الإدارة.

ب ـ ماسحين يعملون على الشخصيات، ومهمتهم تنحصر بتقصي

الحقائق عن الشخصيات المبرزة حسب ما جاء في الفقرة (ب من المرحلة الأولى)، وينطبق على هؤلاء ما ينطبق على ماسحي المداخل.

وتنتهي مهمة الماسحين بانتهاء المرحلة الأولى.

٢ ـ مدخلو معلومات ويبدأ عمل هؤلاء بمجرد ورود معلومات كافية عن المداخل والشخصيات حتى ولو لم تكتمل ولا بد من توظيف هؤلاء وتدريبهم على المطلوب لأنهم هم الذين سيحملون هذه المعلومات على أجهزة الحاسوب بموجب نماذج خاصة تحتوي على المعلومات الأولية وبرامج ذكية معدة لهذا الغرض، والمطلوب نوعان من مدخلي المعلومات بحسب المعلومات نفسها، أي كما يلي:

أ ـ مدخلي معلومات يعملون على قاعدة المداخل، وتنحصر مهمتهم بتحميل المعلومات المتعلقة بالمداخل التي يتقرر إدخالها على برنامج هذه القاعدة، ويكون ذلك حسب النماذج المعدة أصلا لكل مدخل على حدة.

ب ـ مدخلي معلومات يعملون على قاعدة الشخصيات، وتنحصر مهمتهم بتحميل المعلومات المتعلقة بالشخصيات الذين يتقرر استكتابهم، ويكون ذلك بموجب النماذج المعدة أصلا لكل شخصية على حدة.

٣ ـ طاقم إداري مساند وتنحصر مهامه في مثل ما يلي:

١ ـ القيام بالأعباء الإدارية المساندة ليتسنى للهيئة إدارة أعمالها.

٢ ـ تصميم بطاقات (نماذج) العمل المطلوبة للمسوح، وتحميل المعلومات وما شابه.

٣ ـ تأمين وصيانة الأجهزة المطلوبة للعمل.

٤ ـ المباشرة بالمراسلات وفهرسة الردود تمهيدا للبدء بأعمال المشروع.

٥ ـ رعاية النواحي النظامية والقانونية والتجارية المتعلقة بالمشروع .

٦ ـ خدمات السكرتارية (التصوير والنقل والطباعة وغيرها) .

سابعًا الإطار الإداري:

لتحقيق الهدف المطلوب المتمثل بتأليف ونشر وتوزيع دائرة معارف عربية إسلامية يكون للمملكة العربية السعودية شرف المبادرة إليه وتحقيقه ، وهذا أمل طالما داعب خيال المهتمين ، بل هو ضرورة حضارية لا يجوز السكوت عن غيابها ، والتغاضي عنها ـ أرى أن يصار إلى تأسيس هيئة وطنية دائمة تعمل لتحقيق هذا الهدف وتبقى مسئولة عن متابعة تطوره وتقويمه وتحديث معلوماته ، بل وإصدار كتاب سنوي يكمله ويتابع تطور العلوم والأحداث العالمية وذلك أسوة بالتجارب السابقة المماثلة على النطاق العالمي . وهذه الهيئة هي : «الهيئة الوطنية لدائرة المعارف» ، وتتكون من الهيئات التالية التي سبق الإشارة إليها أعلاه وهي :

١ ـ مجلس الإدارة .

٢ ـ المجلس العلمي .

٣ ـ المكتب التنفيذي : ويتكون من مسئول تنفيذي (مدير الهيئة) ، ومن معه من الموظفين الذين أشرنا إليهم في خامسا أعلاه .

٤ ـ ضباط الاتصال حول العالم .

ثامناً: التجارب السابقة وكيفية الاستفادة منها:

لا بد من الإفادة من التجارب التي سبقت في هذا المضمار ، ويمكن النظر

إلى ذلك من منظورين، الأول: المتوفر من الموسوعات العالمية والعربية، والثاني المتوفر من الخبرات العالمية والعربية، وهكذا فالمنظور الأول يمكن بلورته على الأساسين التاليين:

الأول: الأساس العالمي: ويقصد به ما هو متوفر على مستوى العالم من دوائر معارف، وهي معروفة وميسورة لمن يرغب الاطلاع عليها، وينبغي اقتناء نسخة من كل موسوعة لتكون مرجعا عمليا في مكتبة الهيئة.

وكذلك ينبغي الإفادة من التجارب السابقة على أساس المنظور الثاني المتمثل بما يتوفر من خبرات وقدرات إنسانية أو آلية أو معرفية (معلوماتية) ويمكن بلورة ذلك كما يلي:

أ ـ الخبرات العربية: وينطوي كثير من الإخوة العرب والمسلمين ـ بما فيهم السعوديون ـ على تجارب وخبرات جيدة في مجال دوائر المعارف، ومن بينهم المتخصصون نظريا، ومن سبق لهم تجارب عملية، ويمكن بل يجب الاستفادة من هذه الخبرات إما بتوظيف هؤلاء الناس في الهيئة أو بطلب تعاونهم معها بشكل مؤقت يخدم أهدافاً معينة ويحقق أغراضاً بذاتها وهذا متروك لحينه.

ب ـ الخبرات المؤسساتية العربية والعالمية، والعالم مليء بالمؤسسات والهيئات التي تتعلق اهتماماتها بهذا الأمر بشكل دقيق أو من بعد، وينبغي تطوير علاقات وإقامة صلات للإفادة مما لدى هذه الهيئات والمؤسسات من خبرات وقدرات بشرية وآلية ومعلوماتية، وستفيد مثل هذه العلاقات عند البدء ومع استمرار العمل في الهيئة، وكذلك للعمل على تحديث المعلومات وتطوير أساليب العمل والكتاب السنوي وغيره من المطبوعات التي قد تصدر عن الهيئة فيما بعد.

تاسعا: خاتمة حول أحقية المملكة العربية السعودية بتبني مثل هذا المشروع

لا شك أن مشروعا وطنيا وثقافيا بل وحضاريا كهذا ينبغي أن يكون ملكا لكل الأمة منبثقا من تجربتها صادرا عن إرثها وأن الواجب إنما يقع على كل من ينتمي لها وهو بذلك فرض عين على كل منتم للإسلام والعرب وقيام البعض به لا يسقطه عن الآخرين إلا أن القدرة توجبه على البعض أكثر من غيرهم والقدرة قد تنحصر في الجانب المادي وقد تشمل الكوادر البشرية . ولما حبا الله المملكة العربية السعودية من خير عميم ونظرة ثاقبة وشعور بالمسؤولية ولما عرف عنها وقيادتها الحكيمة من تبن لكل ما فيه خير الأمة وخدمة دينها ولغتها وإحياء تراثها و للحفاظ على هويتها فإنها أحق بهذا الفضل من غيرها و إن لم تستغن عن معونة أخواتها من بلاد المسلمين ورجالات العلم والأدب فيها .

وما قيام المملكة بهذا الأمر إلا مثال آخر على تصديها لهم الأمة الأكبر ونذرها نفسها بصمت لتسنم دور القيادة في مسيرة الحضارة الإسلامية والعربية . وكما كان فقد الموسوعة عارا على الأمة كلها فإن وجودها فخر للمملكة ومن يساندها لا يجاريه فخر وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(*) كنت في حوار مع بعض الإخوة الأفاضل ممن يهتمون بالعلم والأدب حول غياب الموسوعة العربية الإسلامية وذكر أحدهم أنه بصدد العمل على مشروع لترجمة إحدى الموسوعات العالمية وكان من وجهة نظري أن لا يصار إلى ذلك بل ينبغي تأليف الموسوعة لا ترجمتها عن أخرى غربية وكانت هذه الصحفات .